PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1757-1770
ISSN: 1553-6939

Formation of the self in contemporary Algerian novel: Investigation in controversy of reality and illusion

Toufik Gueham[1]
[1]University of Jijel - Mohammed Seddik Benyahia - Jijel 18000, Faculty of Arts and Languages, Laboratory research in socilitterary. sociolinguistic. sociodidacktic (Algeria)
The E-mail Author: toufik.gueham@univ-jijel.dz
Received: 04/2024 **Published: 09/2024**

Abstract:
The Algerian modern novel was able to explore/discuss several issues related to the formation of the self; it dealt with identity which is considered the foremost component of group affiliation. Equally, the Algerian narrative discussed issues of religion, history, and politics for being definers and shapers of group existence. These different orientations were the focal points of the current study in which the researcher focused on the dichotomy of truth and illusion in the realistic social movement and that of creativity and art. The investigation i then done through considering dualities of self versus identity and life versus death. This is considered the core issue for understanding the link between reality and illusion.
The findings showed that the Algerian narrative efficiently played an informative role; its writers tried to portray and reinforce all the religious, art, social and political events in a form of confrontations imposed by the dark decade. Due to the latter, truth became absent and doubt and violence prevailed.
Keywords: novel, self, truth, illusion.

تشكل الذات في الرواية الجزائرية المعاصرة: بحث في جدلية الحقيقة والوهم

توفيق قحام[1]
[1]جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل 18000جيجل، كلية الآداب واللغات، مخبر البحث في الدراسات السوسيو أدبية والسوسيو لغوية والسوسيو تعليمية (الجزائر).

ملخص:

استطاعت الرواية الجزائرية الحديثة، استكشاف عدة قضايا جوهرية مرتبطة بتشكل الذات، فتناولت الهوية بوصفها المكون الانتمائي الأول للجماعة، كما عالجت قضية التاريخ والدين والسياسة، بوصفهم الفاعلين الأساسيين في متغيرات الوجود الجمعي للأمة، ولعل هذه القضايا هي التي شغلت الدراسين بالبحث. من هنا جاء تركيزنا على البحث في المعطى الأساسي لتشكل ثنائية الحقيقة والوهم بين التيارين الاجتماعي الواقعي والإبداعي الفني، وذلك من خلال مجموعة من الثنائيات، منها الذات والهوية، الحياة والموت... وهي إشكالية جوهرية في فهم العلاقة بين الواقع والمتخيل.

وقد توصلنا إلى أن الرواية الجزائرية الحديثة، مثلت قيمة إخبارية بامتياز، حاول روادها، تعزيز أشكال ومظاهر الحضور الاجتماعي والسياسي والديني والفني فيها، وذلك في شكل صراع ومواجهة سوداوية مؤلمة وحزينة، فرضتها مختلف أحداث العشرية السوداء بمآسيها، فتغلغت بثنائية الحياة والوهم إلى لب الواقع الاجتماعي أين غابت فيها الحقيقة والأصالة، وسيطر فيها بشكل مطلق عامل الشك والعنف.

الكلمات المفتاحية: الرواية، الذات، الحقيقة، الوهم.

مقدمة:

ينطلق الروائي في بناء المشاهد النصية من محاولة الجمع بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، فيقع في مسألة شديدة التعقيد ترتبط بالحقيقة والوهم ــ من سلطة النص إلى سلطة المجتمع، ولهذا تعتبر الكتابة نوعا من التعقيد الذي غالبا ما يقع فيه صاحبه: كمسألة البسيط والمركب، والجاهل والمثقف، والمواطن والسياسي، والمدني والعسكري والماضي والحاضر...إلخ.

ولما كان هذا حال الكتابة فقد كان نصيب الروائي الجزائر حافلا بالمواجهات والتحديات المتصلة بالراهن والتاريخي والمستقبلي، فبرزت الذات بوصفها عنصرا مُشكلا وفاعلا في تحقيق الصراع بين الوهم والحقيقة، وهنا ارتكزت هذه الدراسة حول البحث في الطبيعة الجدلية لهذا الصراع، مع محاولة التحقق من آلية تشكل الذات وطريقة تنوعها داخل النص الروائي وعلاقتها بالمجتمع وتشعباته، بوصف الذات كيانا معنويا يتحكم في مسالة الهوية والسلوك المادي والوجودي للشخصية.

2-الذات والهوية في الكتابة الروائية:

تعتبر الذات المكون الرئيسي للوجود، وبؤرة الحقيقة المرتبطة بالتفكير والإحساس والتفاعل، لذلك فإنها المحرك الفعلي لكل مفاصل الزمن الكوني. وقد تعدت الذات الواقع إلى الخيال والإبداع فتجلت بشكل مباشر في النصوص الإبداعية، الروائية، مما جعل القارئ منفتحا على مستويات متعددة من الفهم والتأويل للوصول إلى مقاصدها ومدلولاتها، خاصة مع ما يحمله النص من بنيات دالة، فتمثلت رحلة البحث عن رحلة الذات الفاعلة في الهوية وإثبات حضورها في الخطاب الروائي، كونه مركزا للذات التي تعبر عن روح الانتماء كون المجتمع مركزا للوجود، فمثلت بذلك الحياة الاجتماعية الأرضية التي تُبنى عليها النصوص الروائية، كون الأخير متمخض من رحم المجتمع، إلا أن الحياة الاجتماعية رحبة الأكناف واسعة الجنبات فيكون السرد الروائي متشعب ليس بالسهل إدراك مكنوناته، فتعددت مواضيعها لتعدد قضاياها في المجتمع.

أضحت الرواية رائدة في الساحة الاجتماعية بحكم المقاربة والتفاعل مع كل القضايا فالروائي الناجح:" على الروائي أن يتحدى كل الطابوهات والإيديولوجيات، وأن يغوص في معاناة الفرد داخل مجتمعه ويعبر عن مشاكله وقضاياه كونه جزءا لا يتجزأ من ذلك المجتمع... هو ذلك الذي يستطيع استعمال موهبته اللغوية الفردية في التعبير عن الذات والتراث والواقع الذي يعيشه، سواء تمثل هذا الواقع في الجانب السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي، ويتجلى هذا التصور من خلال تشديده على ضرورة ربط الماضي بالحاضر، أو ممارسة العلاقة بين "الواقع

ورؤية الماضي... هو مرآة عاكسة للمجتمع المعبر عنه ""(شنيب، 2012، صفحة 1)، فيسعى الروائي إلى الإفصاح عن كل ما هو سلبي وما هو إيجابي وتصوير هموم المجتمع وألآمه، والتبحر في العلاقة التي تحكم المجتمع وما يسوده من صراعات مع معرفة الشق النفسي للفرد وما ينجرُّ عنه من انفعالات فصورة وهذا هو عمل الروائي هو الجمع بين صورة الذات وصورة الواقع وهنا تتضح العلاقة بين الذات والهوية.

ولا يمكن أن يتحقق هذا الرابط في الهوية، إلا من خلال الحس الشعوري والتخيلي الواعي، الذي يتمخض من إحساس الروائي زمن الكتابة، فيكون الروائي محط صراع بين صورة الذات التي تسعى الى التميز وصورة الواقع الخاضع للزمان والمكان بلغته: " فمفاهيم العالم، ليست مجردة بل ملموسة، اجتماعية، يخترقها نظام التقييم الذي لا ينفصل عن الممارسة الجارية وصراع الطبقات، ولهذا يقع كل شيء، كل مفهوم، كل وجهة نظر، كل تقييم، كل نغم، في نقطة تقاطع الحدود اللغوية/ المفاهيمية للعالم، ضمن صراع إيديولوجي محتدم"(زيما، 1991، صفحة 164)، فالهوية عنصر محوري في تشكل الذات والشخصية لحظة الكتابة، وهي المحرك للعملية الإبداعية، وقد تجلى ذلك في نماذج مختلفة تراوحت بين العمق والسطحية منها ما عبر عنه الروائي الجزائري "عبد الحميد بن هدوقة" في رواية "الجازية والدراويش" عندما تناول شخصية الطيب والطالب الأحمر والجازية حيث عبر عن مقام الذات والهوية الجماعية من المكان "تقع الدشرة في القسم الصخري من الجبل، الجامع بني في الجهة الشمالية من موقعها، يشرف على منحدر يبلغ عدة كيلومترات، له صحن بسبعة أقواس، هي كل ما يرى من السفح، حيث تستوي الأرض وتنبسط سهولها"(بن هدوقة، الجازية والدراويش، 1983، صفحة 57)، وهو مكان يوحي بالعقيدة الدينية والطبيعة العمرانية للبيئة الجزائري، مع تمظهر الصراع حول الذات و الشخصية نتيجة تعبير الطيب على حالة السجن وحالة القرية.

2-1-من سطحية الذات إلى عمق الهوية في الرواية الجزائرية:

يتجلى تشكل الذات في الرواية الجزائرية الحديثة والمعاصرة، من خلال نمطين من التعبير، نمط الروائي، كلاهما يعمل على التعبير عن الحياة الاجتماعية الواقعية تتضح في الهوية والهوية المضادة، تمثل في رواية "تلك المحبة" للروائي الحبيب السايح، والتي جمع فيها بين الذات الأسطورية والذات الحضارية والذات التاريخية، حيت جاء نصه مفعما بالحكايات الأسطورية ممثلة في (الأميرات والعبيد، والغيلان، والسحرة، المردة، والسحر الأسود والعفريت الأحمر، كما تحمل الرواية بعدا غرائبيا وفانتازيا ومقامات ومسامرات، ومعتقدات وعادات وممارسات، وطقوس..)(السايح، 2003، صفحة 88)، كما حمله ذاتا تاريخية ودينية موحية بالهوية والانتماء، واتصال الشخصية الروائية بالمرجعية المقدسة، التي تؤكد عمق الترابط، مع بعث التوسع من فهم العلاقة بين الماضي والحاضر. ومن ذلك شخصية مريم، التي حملها الكاتب دلالات تناصية عميقة، تعبر عن الهوية وروح الانتماء للشخصية الجزائرية، "ويوم وصل عند الطالب إلى آية تتحدث عن امرأة تسمى مريم فهم قصد المعلم فسأل عنها الطالب، فقال له (قل عليها السلام) ..." وهو ما يوحي بتجاوز الحاضر إلى الربط بالماضي المفعم بالقداسة والروح الدينية والتصديق والقبول.

إنه عالم الهوية الذي يلتصق بالذات في الخطاب الروائي، عن طريق التناص مع النصوص التاريخية والدينية، أو ما يسمى بالماضي المقدس، إنه العالم الذي اختاره "حبيب مونسي " "على الضفة الأخرى من الوهم"، عندما استحضر صورة الآخر ممثلة في شخصية "آندريه" المجند في صفوف الجيش الفرنسي، للتعبير عن الأنا الثوري، والهوية الجزائرية، والعمق الإنساني والأخلاقي بداخلها، ممثلا في صورة المجاهد، هذا الأخير الذي قرر إلا يطلق الرصاص على هذا المحتل الغاصب، فأعطاه قيما عليا للشخصية الجزائرية، "كان في إمكانه أن يقتلني... أن يقتل عددا من الرفاق قبل أن تصيبه قذيفة.. أو ربما ينجو... ولكنه تكرم علي بالحياة متلما صنعت

معه... إنها أكبر سارات الكرم التي أعرفها في هذا التاريخ البغيض، الذي تسميه البشرية تاريخها الخاص"(مونسي، 2002، صفحة 58)

أما الوجه الآخر للذات الإنسانية والقيم الأخلاقية للشخصية الجزائرية في رواية "مونسي" فتمثلت في دفاع البطل عبد الرحمن عن الشخص المغربي الذي تعرض لاعتداء وحشي، وهو التدخل الذي جعل البطل يحس بالمسؤولية بعد مقتل أحد الأشخاص، أين كان يظن أنه هو من قتله، قبل أن تنفرج أحداث الرواية ويتبين أن القاتل شخص آخر، استعمل مسدسه من أجل اغتياله، وهنا يتدخل" الآخر" مرة أخرى لتبرئة عبد الرحمن، ويتمثل في صديقته "كورين" التي دافعت عته بشدة وهي تقول :"وهل كنت تتركهم يقتلون المغربي؟"(مونسي، 2002، صفحة 40)، هذه النبرة الخطابية توحي لنا بعمق الذات الانتمائية الجزائرية، واستيعابها لمكونات الهوية الانسانية، والقومية، وهذا ما نشأت عليه الشخصية الوطنية "إن هذه العلاقة تتسع لكل الكائنات، فلا يشترط فيها أن يكون المتواثقان من جنس واحد"(عبد الرحمان، 2017، صفحة 196)

تمظهر مستوى الشخصية عند بشير مفتي في رواية بخو السراب زاوج فيه بين نوعين من الذات، ذات متمردة وذات متمردة على نفسها من خلال تصويره لشخصية المحامي التي وجدت نفسها تصارع العادات القديمة من خلال ما تفرضه سلطة الوالد الجد المعزوز، والسلطة السياسية من خلال ما تفرضه السلطة الحاكمة.

الواقع صور لنا أزمة تشتت الهوية للمجتمع الجزائري ذلك من خلال دخول ما يسمى بالمعارضة الإسلامية، التي حملت سمات كانت بعيدة كل البعد عن القيم التي تنص على التسامح وهذا نوع من الأزمة التي تعيشها ذات البطل يقول في ذلك: "عقلي لا يجيب وروحي منفتحة على ما لا يجد... أي منفى يمكن للمرء أن يقدر على تجاوزه؟ يقدر على مقاومته؟ الروح عندما تستسلم لسجن الغياب، للقطيعة مع العالم، عندما تصبح روحا هائمة على نفسها لا يلمها جسد أو إطار "(مفتي، 2007، صفحة 75)، وعليه إن هذا المعطى الانتمائي الديني والتاريخي والسياسي، يحظى بأهمية قصوى في الوعي بأن الرواية الجزائرية وليدة الروح الجماعية المتصلة بالذات وهنا رسم هذا الفن صورة له في الأعمال الثقافية الجزائرية.

ونجد ذات البطل تلعن السياسة، الأخيرة التي شتت الجسد عن الروح وجعلت كل واحد منهما يعيش نوعا من الاغتراب بعيدا كل البعد عن الحرية، يقول في ذلك: " اللعنة على السياسة"(مفتي، 2007، صفحة 102).

إن مثل هذا الطرح يقدم لنا قراءة حول مفهوم التجربة الذاتية أو الشخصية، ونوعية العمق الذي تتطلبه لفهم الحقيقة وإدراك الهوية، وهذا ما يشتغل عليه بشير مفتي، في تقديمه للشخصية الحائرة، وهو يتقاطع مع الفيلسوف الغربي "إ. كانط" الذي "فكر في الذات باعتبارها قدرة على المعرفة من خلال مفاهيم متزمنة، فكان قدر الذات أن تجد نفسها ملقى بها نحو متنوع التجربة، ليست التجربة الخارجية معطى خارجي، بل إنها غير ممكنة إلا من خلال الوعي بالتجربة الداخلية، وهذا غير ممكن إلا في خضم الزمن ومن خلاله"(مزيان، 2015، صفحة 159)، فربط التجربة بالزمن ضرورة حتمية على اعتبار أن الروائي اشتغل على روح الزمن وطبيعة التجربة، التي مثلت بعدا استكشافيا للحقيقة، فالشك بمفهوم نيتشة كان أساسا له في هذه العملية.

2-2-مرايا الهوية في الرواية الجزائرية:

قبل الدخول إلى هذه الرواية ينبغي علينا التذكير بمقامات الهوية في رواية "سيدة المقام"، أين حاول "واسيني الأعرج" تثبيت الهوية الجزائرية المعاصرة بسؤال الذات الذي أطلقته مريم، والذي تمحور حول مسألة الوجود والعدم، والاستسلام والمقاومة، لقد استطاع الروائي تجاوز عقم الهوية وتعطل الذات نتيجة الصراع السياسي الديني، ليصل بنا إلى مفهوم للحداثة، قوامه المثاقفة الحضارية، والتواصل مع الآخر من منطلق الوعي بكل مستويات الحقيقة والوجود.

كما استطاع أيضا خلق بطل جديد من وسط مثقل بالقدم والدونية، فجاء البطل في شكل أنثى متحررة في فكرها وفي وعيها، تواجه سلطة عقيمة منغلقة، لعل الرصاصة التي استقرت في رأس مريم، هي عنوان المرجعية الخاطئة، التي قتلت فكر التطور والتفاعل والاحتكاك، وعطلت الفهم الحقيقي للذات الجماعية.

ويستمر الخطاب في امتداده الإبداعي مع رواية "ياسمينة صالح"، لتولد الحقيقة الجديدة من رحم الحقيقة المزيفة، حيت الذات الانتمائية ممثلة في صورة الوطن الذي هو "وطن من زجاج"، أين يستقر حال الشخصيات كنوع من التصلب الشعوري الناتج عن عقم الحاضر في وجه الماضي، لقد حاولت الكاتبة الكشف عن وجود خلل ما يعيق ربطنا للماضي بالحاضر، إنه خلل الفهم والتفسير والوعي وهو ما تمثل في رواية سيدة مقام الذي تحدثت عنه مريم، تقدم رجل وتؤخر أخرى، لا تستطيع الهروب إلى الماضي ولا الحاضر :"كنت أعي من البداية أنني أعيش حلما عميقا عشته بطريقتي من دون أن يكون الآخر مجبرا على عيشه معي بنفس الحدة"(صالح، 2006، صفحة 64)، وهو كلام محمل بالكثير من البحث والوعي بمقتضيات الحال والحقيقة، فهو يستجيب لتجربة الواقع المبنية على الوعي بالذات كما يقول " نيتشة "،الذي يرى بأن "ماهية الإنسانية الحديثة تكمن في الوعي بالذات، وعي أكمل بذلك خطوته الأخيرة. إنه يريد ذاته كمنجز لإدارة قوة مطلقة"(مزيان، 2015، صفحة 504)، ولعل الوعي بالذات يتطلب حالة من التساؤل والكثير من التجربة والممارسة، كتلك التي عاشتها الروائية مليكة مقدم أو مرزاق بقطاش أو محمد ساري، أو ياسمينة خضرا، أو ياسمينة صالح هذه الأخيرة تطرح تساؤلا يكتنفه نوع من الحيرة قائلة:" ما الوطن؟ ما الإنسان؟ وما القيمة؟ من يقدر على تحديد هذه المفاهيم؟ هل يكمن الإنسان في المبدأ. وهل ثمة مبدأ لم يعد متورطا في مصلحة؟ ألم يعد الوطن نفسه مصلحة كبيرة"(مزيان، 2015، صفحة 65)، إن هذا التقديم الذي حفلت به الرواية نقلنا من وضعية الحقيقة الزائفة، إلى وضعية الوهم الحقيقي، فالشخصية ماتت لأنها استطاعت كشف الحقيقة، والآخر حي لأنه يعيش على هامش الجماعة، إنها بؤرة الصراع بين الهامش والمركز، حيت النذير يقاوم من أجل حقيقة ثابتة وعقيدة صريحة، في حين يقاتل المتطرف من أجل مصادرة الحياة والحرية والقناعة، ولهذا استطاعت ياسمينةصالح الولوج إلى هذا العالم من المواجهة لتحقق لنا تمثلا فنيا ودلاليا معبرا عن الحقيقة بوصفها إبداعا، لا بوصفها واقعا، وهذا ماتجاوزته الكتابة الروائية الجزائرية.

4-الذات بين وهم الحياة وحقيقة الموت:

يعتبر سؤال المصير من الأسئلة الأكثر تعقيدا في الفهم والإدراك المعرفي، نتيجة اتصاله بعوالم مختلفة، مرتبطة بالزمن والضرورة، وهو في الكتابة الروائية يمثل عنصرا مهيمنا بشكل دائم ومستمر على المخيال السري للذات الكاتبة، تماما مثلما هو مهيمن على الفرد في حياته الواقعية، ولعل مثار هذه الصعوبة هو ارتباطه بالوجود، هذا الأخير الذي أعياه الفلاسفة بحثا وتفكيكا، لتتباين مواقفهم من كيفية وجوده، مع اتفاقهم على حقيقة كينونته كوجود ملزم للذات والهوية.

ولما كان هذا حال الوجود فقد ارتبط بالمصير، الذي يعتبر هو الآخر ممثلا في صيغتين أساسيتين هما ثنائية : الحياة/ الموت، الأخير الذي هو مصير كل إنسان، إلا أن صورته في خيال الأديب تأخذ بعدا آخر راجع ذلك إلى ما يحمله من تأويل واختلاف في المفاهيم التي توضح لنا جوهر الفرق بين نوعين من الموت: العادي/ المعنوي، ففي الكتابة الروائية الجزائرية كانت رحلة البحث عن الوجود بارزة في نماذج مختلفة وفي أزمنة متعاقبة، كانت نقطة انطلاقها من المرحلة الاستعمارية، التي جسدت حالة من الزيف والمغالطة لحقيقة الوجود، فكان الفرد الجزائري يعيش على هامش الحياة، لذلك عند قراءتنا لروايات هذه المرحلة نجدها تستوعب أزمة قائمة على صراع الحقيقة والوهم، حيكت بقلب مفعم بالهوية الجزائرية، فكان من روادها الشهيد مولود فرعون، محمد ديب ومراد بوربون، ومالك حداد، ومولود فرعون، ومحمد ديب وغيرهم.، هذا الأخير الذي حملت روايته

الموسومة بـ"الدروب الوعرة"(فرعون، 1984)كل معاني الصراع بين حقيقة الحياة و الموت، وهذا الصوت هو صوت الحقيقة الذي بني على التضحية والمقاومة، وروح الجماعة، فالأكيد أن الثورة الجزائرية حملت بداخلها عظمة الفكر والعقيدة، وعبرت عن فلسفة جديدة للوجود، وهي فلسفة الدم والتضحية المنبثقة عن المرجعية الدينية، فتحول الموت إلى حياة. واستمر حال المقاومة والاتصال بالواقع المعاش إلى المرحلة المعاصرة مع رواية الأزمة، لأن "الحدث الروائي في الجزائر ذو أصول واقعية، ولا نقصد هنا التصوير الفوتوكوبي، وإنما العمل الإبداعي المجسد بالتكوين الذي يوازي التصوير بنوعيه الحسي والفوتوغرافي في معايشته لمجريات الواقع"(دوغان، 1996، صفحة 86)، إنه قدرة المبدع على تخطي عتبة الفوتوغرافيا، إلى التخييل الفني المتصل باكتساح الواقع، وتجاوز عتبة النقص والقصور الذي يمكنه تحجيم الوجود والحقيقة.

4-1-هامش السراب بين ثنائية الحياة والموت:

يعتبر الروائي الجزائري "**الطاهر وطار**" من أكثر الكتاب استحضارا لثنائية الحياة والموت، في نصوصه الإبداعية، وهو الذي ربطها بالوطن والهوية والذات والشخصية، إذ بالإضافة إلى كل ما قدمه في "اللاز" من مفارقات انتمائية ووجودية متصلة بالحياة والموت، نجده تفاعل مع العشرية السوداء بكثير من التحليل والقراءة والاستدلال، محركا بذلك خيال المتلقي ووعيه وثقافته ودينه ووطنيته، من أجل الحكم على الواقع الاجتماعي والسياسي للوطن، وقد تجلى ذلك في وراية "الشمعة والدهاليز"، والتي كان فيها صوت التاريخ والمثقف عنوانا لثنائية الحياة والموت، فالبطل الذي ساهم في محاربة المستعمر الفرنسي -وهو طفل- من أجل الحرية والحياة، يجد نفسه اليوم أمام مشهد أكثر قتامة، أين يفتح الموت دراعيه أمام الوجود، والحرية، والتاريخ والهوية، أين تظل الشخصية مشدودة انشداد قويا إلى هذه الظاهرة، وتسعى إلى معرفة كنهها وأعماقها وتحاول تحليلها من عدة أوجه مما جعلها تتردد وتتراوح بين الآراء: "لكن هذا النهر لا بد من الاستحمام فيه، وها أندا أحد أفراد هذا الشعب، تمكن من المعرفة والاطلاع، ويقال عنه مثقف، ها أندا في حافة النهر، إما أن أنزل مع النازلين وإما أن أظل متفرجا إلى أن يقذفوني بالحجارة"(وطار، صفحة 179)

إن هذا النزول الذي وظفه الطاهر وطار لم يكن إلا سببا من أسباب الصراع حول هذه الثنائية، فالوجود الآن أصبح مرتبطا بالبحث في هوية الأشياء، وفي صراع الذات مع بعضها ومع الآخر، وسواء"يخوض أو لا يخوض تلك هي المشكلة التي ولدت معاناة حادة لدى الشاعر... صعدت من ساحة أول ماي مهموما مغموما، روحي أثقل من أن يحملها جسدي، يعذبها سؤال محير"(وطار، صفحة 42)، لقد تحول وجود الفرد في هذا الزمن إلى معاناة ومواجهة عنيفة مع الأفكار والمبادئ والثوابت الوطنية، نتيجة التحولات الفكرية والايديولوجية المتسارعة، فالهوية المقدسة بدأت تتحطم شيئا فشيئا، وجاء التغيير الجديد الذي اختار المرجعية الدينية عنوانا لتحطيم المرتكزات الوهمية. إنها سيطرة القوة على القوة، والاشتغال على وهم الحقيقة لتبرير ما يسمى حقيقة جديدة هي حقيقة الوهم

يلتقي الشاعر بصديقته زهيرة فيجتمع الحب والحقيقة إلى درجة الصوفية، وتعيد إليه روح الحياة وقيمتها، كما تعيد له ذاته التي فقها، ووطنه الذي طالما حلم بالعيش فيه مرتاح البال، ولكن مجموعة من المجددين الباعثين للحقيقة (الملتحين) تترصد كل حركاته وسكناته لتقتل في كل الأمل والرغبة والسعادة، يحكم عليه بالإعدام يقول الشاعر "ليقتلوني، لينجزوا ما حاولت إنجازه قبل أن ألتقي بها"(وطار، صفحة 204). لقد استطاع "وطار" بفنيته الراقية إحالتنا على جو من الغرابة والتشويه للحقيقة، كما استطاع التعبير عن الكثير من الوهم الذي تعيشه الذات وتواجهه في أعماقها نتيجة الصدمات المتكررة التي تعيشها، إن الموت الذي تطلبه يهبك الحياة، وأما الحياة التي

تعيشها فتسلمك إلى الموت، وهي صورة موحية بالغموض والعنف الوجودي والصراع المفضي إلى الوهم والموت.

ويتواصل هذا السراب الوهمي في رواية الشمعة عبر مسارات السرد المقدمة، حين يستحضر الشاعر ذكريات الجامعة، لما كانت جامعة قسنطينة معقل النشاط الفكري والايديولوجي، وكانت السلطة السياسية تخاطب الشعب بلغة الشرعية التورية المتصلة بالثوابت الانتمائية، ظهرت الحركة الدينية لشخصية عمار يقول:" ألهمنا الله إلى إتباع خطة تعاكس خطط باقي الحركات السياسية الدينية منذ قدم التاريخ... نعلن على أنفسنا بلباس يخصنا وحدنا ذكورا وإناثا، يلتحي رجالنا، ويغطون رؤوسهم، ويخرجون إلى الشارع متحدين الجميع معلنين أننا هنا لا نخشى لومة لائم، متأهبون لسخرية الساخرين، للموت، للسجن، لكل المصائب..." (وطار، صفحة 92). هذا الخروج الذي متل نقطة المواجهة والصراع بين وهم الحقيقة، وحقيقة الوهم، أو بين ما هو كائن وما سيكون، لقد جاء الخروج إلى الشارع ليعلن بداية العهد الجديد للذات والشعور، وليعلن عن ميلا صراع جديد بين الحياة والموت، وأن الحياة لم يعد لها معنى أمام هذا الوهم الذي نعيشه.

إن الصراع الذي جاءت به الرواية هو مجموع المحمولات الفكرية والفلسفية والدينية التي اختارت تفسيرا جديدا لهذا الوجود، ولهذه الذات المنكفئة على فكرا تابت منذ الاستقلال، ولكنه صراع وهمي هو الآخر، لا يمكنه تخليص الفرد من هواجسه ونوازعه وهمومه، كما أنه قاصر عن ايصاله إلى الهدف المنشود، وإلى الذات المتعالية في حياتها ووجودها، وهنا تحدث "وطار" عن فقدان الثقة بالنفس بين كل التيارات وحتى بين عناصر التيار الواحد، فالديموقراطية تتطلب وجود ثقة تامة ومتبادلة بين المثقفين والمواطنين والسياسيين ورجال الدين.

ويعتبر الوجود عند الروائي الجزائري بشير مفتي، صورة من صور الصراع والوهم والمواجهة في تاريخ الفرد الجزائري الحيت، وهو في رواية "بخور السراب" من أهم العناصر المكونة لفكرة الحقيقة، ومنه ثنائية الحياة والموت، كونها ثنائية مرتبطة بالفرد، تجعله العنصر المهيمن على الفضاء الشعري للرواية بإيجابياته وسلبياته، ونجد أن بشير مفتي ربط هذا الوجود بمسألة اللقاء والفراق :"هكذا هي الحياة، لا تفتأ تلاقينا وتفرقنا، تلعب بنا كما تشاء و تأخذنا حيث أقدارنا تريد"(مفتي، 2007، صفحة 146)، ليوحي لنا بجانب من الإرادة المفقودة، وهو مدخل صريح للنص، من شأنه خلق أفق توقع عند القارئ، يجعله يبحر بخياله في محاولة استيعاب الصراع القائم

وتفسير مسببات تأزم الأحداث في الجزائر خلال هذه الفترة، حيث الموت يحمل "مدلوله المتسم بالقبح الباعث على الانقباض ليتعالق ضديا مع المنظر الخلفي الباعث على الانشراح"(Ricoeur, 1985, p. 311).فصار في الواقع الجزائري، ومنه في النص الروائي المعاصر، يحمل مواجهة صريحة ضد الحقيقة الوجودية، كما أنه يعبر عن أفعال متجانسة معه قوامها التطرف والعنف، والخوف، والهروب، وغياب الهوية البشرية الصريحة والقائمة على العقل.

وقد حملت شخصية البطل في الرواية، نوعا من النظرة الفلسفية والدينية لهذا الوجود من خلال تجاوزها لفكرة النهاية، والمتمثلة في حالة الوعي بحقيقة الوجود وحقيقة الصراع، ومعنى الحياة، إن حداد عندما يقول:" لست خائفا، صدقني، ولو كلن هناك شيء يخيفني بالفعل فليس أن أقتل، تتساوى الحياة والموت برأسي، ولكن القلق يأتي من سوء الفهم... لقد حاولت شرح موقفي للجميع بمن فيهم طلبتي الذين حذروني بدورهم وقالوا لي إن الوضع سيء وإن أهون الأفعال اليوم هو القتل... أفكر بجدية في ترك الجامعة، فحسب ما سمعت، لقد حلل دمي وإن كل تلك الشائعات بصددي لم تكن إلا البداية لإعطاء شرعية لمقتلي. سيقتلونني حتما. لم يعد عندي أي شك في ذلك " (مفتي، 2007، صفحة 114،115)، إنما يعبر عن رؤية متجاوزة لحدود الفعل الحاصل، فهو لا يفكر

بمنطق السلطة، أو الجماعة المسلحة، وإنما يحمل فكرا عميقا حول الوجود، إنه يحاول إيصال مقاربة فكرية وواقعية تعطي للحياة معنى، وللموت قيمة، وللوجود ماهية، إن نهاية هذا الوجود عند البطل ارتبطت بترك فضاء مهم، هو فضاء الجامعة الذي كان رابطه بالحياة، وكان عنوانا للتعلم وفهم الوجود، فقرار الرحيل الذي اتخذه لم يرتبط بالخوف من الموت بقدر ارتباطه بإعاقة فكرية لم يستوعبها الآخر في ممارسته للسلطة، لذلك حمل نبأ وفاة حداد علامة على قتل الوعي، والحقيقة، والفكر، والوطن.

إن نظرية الموت في العشرية السوداء في الجزائر حملت رمزية مرتبطة بنهاية الشخصية وتحطم الذات، كما عبرت عن عمق الوهم الذي كانت تتخبط فيه على السنوات، وأنها ارتبطت بمسار مخالف للحقيقة المأمولة، لهذا نجد الروائي الجزائري مشتتا في أفكاره وفي شخصياته، فيسيطر الموت والعنف والفساد على أغلب أجزاء النصوص السردية، كما أن المثقف في الرواية الجزائرية يمثل الضحية الأولى لهذا العقم الوجودي، لأن تحطمه هو نهاية للحقيقة والقيمة والمستقبل، ولهذا يشتغل الروائي على تحطيمه في نصه ليقترب إلى الواقع التراجيدي للشخصية الانتليكتيالية(Intellectuel).

2-4-تصدع الحقيقة وموت الوطن:

يستمر البحث عن معاني الوجود والحقيقة، بين ثنايا الحياة الموت، في الكتابة الروائية الجزائرية، ليقدم لنا رؤية **"حميدة العياشي"** في روايته "متاهات ليل الفتنة"، التي أعطت للشخصية بعدا آخر في الحياة، ممثلا في رغبة المثقف في تجاوز العنف، والموت، وإعاقة الفكر، إلى مستوى من الإلمام بمعاني الحقيقة الوجودية، المرتبطة بالمرجعية التاريخية الدينية والثورية، فكانت نهاية عمر، وعلي خوجة أيدانا بنهاية الحياة وموت الحقيقة وسيطرة العقم الفكري على الحياة.

كما أن الروائي اختار الآخر للتدليل على أزمة الوطن في روايته، وذلك حين اختار السكرتير الأول للسفارة، بوصفه شاهدا وواعيا بالحقيقة التي يعرفها، للتعبير عن ذلك بقوله: "جذبتني تلك القوى التي راحت تكتسح كالواد الرهيب الهائج كل ما تجده في طريقها، الأصولية الإسلامية التي أضحت تبدو كالبديل الوحيد في هذا البلد المشبع بالثورة والراديكالية وبالحب المقدس لتضحية فرضت نفسها علي"(عياشي، 2003، الصفحات 159-160)، وهي صورة مكتملة تتحدث عن غياب الوعي والاعتقاد الصحيح المبني على قناعة راسخة وتفكير متأني يعي ما يعتقد به"(حبيلة، 2010، صفحة 241)

لقد سيطر الرعب والخوف والموت على الوطن والحياة، مثلما تحولت الحقيقة إلى زيف وتحول الزيف إلى حقيقة، فكان الفكر العقيم والوعي المختل والمغالط سبب كل التجاوزات والانحرفات الحاصلة، إن الروائي حميدة عياشي في نصه هذا استطاع أن يضع مقاربة إخبارية وفكرية تجمع بين الحقيقة والوهم وبين الفكر والواقع، كما استطاع استحضار كل معالم الوجود المتصلة بالأنا والآخر، إذ يقول: "الكلمات تدخل ساحة الحرب. كل شيء بدا كأنه يستعد لحرب طويلة، المساجد، قدامى البارونا توالبارونات الجدد، اللغات، الايديولوجيا كلهن بزغوا إلى سوق السياسة كالعفاريت"(حبيلة، 2010، صفحة 158).

وتتواصل الأحداث بطريقة جديدة مع الروائي "حبيب مونسي"، أين يأخذ الموت في الرواية حقيقة جديدة متصلة بميلاد العنف، وتصدع الحقيقة، فقد كانت لحظة اغتيال الرئيس (محمد بوضياف) بداية جديدة لموت الوطن، "إنه يذكر فقط أنه لما قتل الرئيس بوضياف... تنهد عميقا وغمغم قائلا: لقد فتحوا باب الشر...وتوالت أمامه صور المجازر دون أن يحرك ساكنا... " (مونسي، 2002، صفحة 72)، إنها اللحظة التي أرخ فيها مونسي لمسار جديد في هذا الوعي المبني على نوع آخر من الجهاد ، الأخير تحول من جهاد مبني على حقيقة المقصد،

إلى جهاد مبني على وهم الحقيقة، فتعطلت كل القيم والحقائق، وماتت الوالدة وهي تفترش الأرض التي حرمت منها لسنوات، بعدما حارب زوجها المستعمر.

لتصل الأحداث إلى حيث انطلقت بنا الروائية "ياسمينة صالح"، حينما عادت بها الذاكرة إلى ذلك العجوز الذي فقد عائلته "أتذكر ذلك الشيخ الذي وجدناه يبكي على عائلته لم يبق منها أحد... جاء من مدينة أخرى هاربا من الإرهابيين الذين لحقوا به إلى هناك... كان مجاهدا شارك في الحرب التحريرية وقاد كتيبة نحو الاستقلال... قال أنَّه عجز عن الدفاع عن أهله، خانه بصره الضعيف وعمره السبعين. خانته شجاعته وخانه خوفه. كان يبكي لأنه خاف من الموت في الوقت الذي مات فيه أهله جميعا... وطن يموت فيه أبناؤه ذبحا ا كانت الجثث المرمية على الأرض غارقة في الدم... رأيت أطفالا صغارا مذبوحين، ونساء كانت لحظة الرعب الأخيرة قابعة على ملامحهن التي لم يبق منه سوى الجزع الأبدي "(صالح، 2006، الصفحات 72-73)، وهي البوابة التي اختارتها لتثبّت معالم البداية والنهاية في الرواية، فكانت نهاية التاريخ بداية لنهاية الحقيقة، وسيطرة الوهم، وموت الوطن، وانهيار الذات وتصدعها، استطاعت هذه الشخصية أن تلخص-بحرقتها وألمها- مسيرة جديدة من الأفكار والمبادئ والقناعات التي لم يحملها أيام الثورة التحريرية، عندما دافع عن حق هؤلاء المحكومين بحقيقة وهمية في الوجود، إنهم اليوم يحرمونه من حقه في التنعم بالحياة رفقة عائلته، هذا الشعور الذي حمل معاني الموت، نتيجة حالة العجز المرتبطة بالسن والخوف.

لقد أصبح هذا الوجود محكوما بالخيبة نتيجة تغير القيم والمفاهيم، واحتدام الصراع على السلطة: "يعيش على وقع الخيبة ويغني أغاني الراي الشهيرة ويرقص على جثث القتلى. كان الوطن ينظم مهرجانات الأغنية الدولية... كان الوطن يجامل الأجانب على حساب أبناء البلد... يدفع لهم بالعملة الصعبة كي يغنون في جزائر الشرف... حيث موت النذير وقبله والده، وكلاهما مات برصاصة الوطن كما مات بها الرشيد من قبل، فالوالد المعلم للأجيال عاد إلى العاصمة ليجد نفسه معاقبا بالطرد بتهم كثيرة أكبرها التطاول على الأسياد. فجأة وجد نفسه خاليا من العمل" (صالح، 2006، صفحة 62،74). فالموت حمل أوجها مختلفة، لعل أعظمها وأفجعها ذلك الذي تعلق بالشعور بالخيانة من الوطن، وبالتسريح من العمل، حيت استطاعت الرواية الجمع بين الفرد والوطن، فكان موت الأول دلالة على موت الثاني، وهي نتيجة لغياب الفهم الصحيح لهذه القيم الوجودية، إنها قطيعة الذات المهيمنة مع الذات المهمشة والمنبوذة، إنها لحظة انفصال وقطع حبل مع الماضي تاريخيا ودينيا.

ولعل هذا الواقع جعل بطل الرواية يتخلى عن هذه الحياة ويبحث عن الموت كسبيل للخلاص وكبداية فعلية لما هو حقيقي يقول: " اكتشفت أن الموت هو البداية الحقيقية لكل شيء"(صالح، 2006، صفحة 148)، وهي النهاية التي أراد من خلالها الكاتب التعبير عن حالة من الوعي التام بتصدع القيم ونهاية الحياة في هذا الوطن، الذي يصر على قتل أبنائه المخلصين ،إن مأساة الوطن وما خلفته من نهاية للحياة والوجود تجلت مرة أخرى في الرواية من خلال تصوير الكاتبة لضبابية المشهد الإجرامي، وسيطرة المجازر على الحياة اليومية للمواطن، فهذا الموت الجماعي صار مشتركا بين الجميع، ولم تعد هناك حاجة للتفصيل في هوية المقتول والقاتل، لأنهم ضحية لهذا الوطن، الذي ماتت فيه الهوية والقيم، وسيطرت عليه قيم بديلة ترسخ لمستوى من الإجرام والفساد.

من خلال ما سبق يمكن القول إن أزمة الحياة والموت في الرواية الجزائرية، لم تكن متصلة بالفرد بقدر اتصالها بالجماعة، والوطن، والوجود، فاشتغال الكاتب لم يكن من باب البحث في هوية القاتل والمقتول، أو في عدد الموتى وجنسهم، أو في المستوى التعليمي والوظيفي، بقدر ما كان مرتكزا حول البحث في مدى الوعي الجماعي بقيمة الوجود والوفاء للوطن، والحقيقة، إنه بحث في حوار الذات مع ذاتها واستيعاب الفرد للجماعة

والعكس، هذا الاستيعاب المحكوم بفكرة الاقتناع والفهم، بدل الوهم الذي سيطر على الساحة، وجعل الوسط متعفنا بأفكار خاطئة، أو بحقيقة مزيفة.

5-البحث عن الأنا في الرواية الجزائرية المعاصرة:

اتصل الأنا بالهوية في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر اتصالا وثيقا، ذلك أن كل أنا له ما يجعله متفردا عن الآخر وذلك يكون بالهوية، الأخيرة جعلت من الأنا عاملا مفصليا في الحفاظ عليها، والهوية متغيرة لا تعرف الثبات فبالتالي ما يتحكم في هذا التغير هو الأنا من خلال فعل التأثر والتأثير، العلاقة بينها يرى علي حرب أن:":"تعاش من خلال مفردات الأصل والمحافظة أو الاحتراق والتحول. وعندها لا يعود الشعار هو الاعتصام بالأصول والخوف على الذاكرة والهوية من الضياع والذوبان، بل تفكيك الأصل وخروج المرء عن ثوابته من شكلها المغلق كأسماء جامدة إلى شكلها المفتوح والمتحرك كطاقة على الخلق والإبداع هي السبيل إلى بناء علاقة مع الآخر تقوم على التسوية أو على الاعتراف المتبادل"(حرب، صفحة 24)، فقوام الأنا هو التبسيط والاختزال إضافة إلى ذلك أحادية الجانب، الأمر الذي أدى بنا إلى الى الحفاظ على الهوية، كون الأخيرة تمثل ذلك الانتماء من خلال تلك العلاقة التي ترتبط بالآخر، فلا يمكن الفصل بينهما، أي أن الاختلاف لا يحد من وجود الهوية لأنها تمثل كل ما يجعلني لست الآخر، وهذا ما يمثل الهوية المفتوحة و المستوعبة لفكر التطور التلاقح المعرفي.

الثورة التحريرية في الجزائر تعد من النماذج التي دافعت عن الهوية، تبنى هذا الطرح النخبة المنزعمة للفكر النضالي والتي قامت بضبط أركان تقوم عليها الهوية ممثلة في الدين الإسلامي، اللغة العربية والتعدد الثقافي، إلا أن الاستعمار حوال بكل الطرق القضاء على النخبة من خلال الإبادة، التشريد، وفي مطلع القرن ال20 بدأ التشكيل الجديد للنخبة الجزائرية فظهر تيارين متمايزين ومتداخلين هما :" التيار الاندماجي من جمعية المنتخبين 1927 إلى الحزب الشيوعي في الجزائر (تأسس نظريا 1924) إلى أحباب البيان و الحرية 1944، وتيار الحركة الوطنية الذي بدأ بنجم شمال إفريقيا 1926، قبل أن يعود في صورة حزب الشعب 1937 وقبل ذلك جمعية العلماء المسلمين 1931"(ولد خليفة، 2003، صفحة 202)، فأسهم بذلك هذين التيارين في حفظ الهوية وكل ما له صلة بالروح الوطنية، الاستقلال، والعلاقة مع الآخر "فرنسا"، الدفاع عن المرأة، كل هذا حصل من خلال تلاحم الصفوف والتوسيع من رسم مساحة كبيرة للزوايا والكتاتيب القرآنية والتي كان أغلبها ينشط في الخفاء.

5-1-الذات الحائرة في الرواية الجزائرية:

يربط الكثير من الدارسين رحلة البحث عن الذات والوجود عامة بمسألة الوعي والتيه، باعتبارها قضايا متعلقة بالشعور بالاغتراب والبعد عن الذات الجمعية، كما ارتبطت الذات في البيئة الجزائرية خاصة، بالكثير من الحيرة والقلق والتيه، نتيجة المسار التاريخي المرتبط بالاستعمار الفرنسي المعادي للهوية الجزائرية، وهو ما أثر على العملية الإبداعية في مضمونها الحضاري والفكري والتاريخي إلى اليوم، فقد عرفت الرواية الجزائرية في بنياتها الهوياتية ارتباطا مباشرا بالبحث عن الجانب المغيب والمقهور من الشخصية نتيجة ممارسة متطرفة تجاه الآخر، وقد تجلى ذلك في ثلاثية محمد ديب، وفي رواية نجمة لكاتب ياسين، وعند الطاهر وطار من خلال رواية اللاز.

وبالوصول إلى الرواية المعاصرة مثلت رواية الأزمة عقدة نفسية للشخصية الروائية، نتيجة تسارع الأحداث وتعقدها وعنفها، وهذا ما وجدناه في رواية "الورم" لمحمد ساري، ورواية "سيدة المقام" لواسيني الأعرج، وراية "على الضفة الأخرى من الوهم" لحبيب مونسي، هذه الأخيرة التي كانت رحلة البطل عبد الرحمن في باريس نوعا من الاغتراب النفسي والاجتماعي، رفقة عائلته، فكان صوت التاريخ أقوى من الحاضر، وكان بحثه عن ذاته وعن شخصيته أبرز سمة مثلت الكتابة السرية، فقد اشتغل الكاتب على محاولة إثبات هذه

الشخصية في أبعادها الدلالية والفكرية: "كان عبد الرحمن يدرك أن تحليله للقضية غير منطقي، وأن ما يجد من الأفكار لا يتأسس على العلم اليقين، وأنها مجرد تخمينات قد تصدق وقد تخيب.. وأنه معني بها مهما فعل بنفسه... لأن من هذا التراب الذي يذوق ويلات التقتيل والخراب. غير أنه لا يملك المعطيات التي تخول له بناء تصور واشح للمسألة"(مونسي، 2002، صفحة 152) إن البطل الذي لم يستطيع التوصل لإجابة حول الواقع المتأزم في بلده، سيظل يعيش حالة من البحث عن الذات الحقيقة، وعن شخصية الإرهابي الذي يقتل أبناء وطنه، إنه يحاول الوصول إلى تفسير مقنع يبرر له هذا الوجود السوداوي والغامض، فيربط ماضيه بحاضره، تماما مثلما أحست بذلك والدته التي عادت من الغربة إلى قريتها لتدفن فيها بعد تعرفها على هويتها وعلى ذاتها الحقيقية "هل تعرفت على الأرض يا أماه؟. اعتدلت في جلستها، واقتربت منه هامسة: نعم... كل شيء كما تركته من قبل، ابتسم عبد الرحمن لها، وهو يدرك أن ذاكرة أمه تفتح على جزئيات لا تعلمها إلا هي..."(مونسي، 2002، صفحة 123)

وفي رواية "متاهات ليل الفتنة" كان تشتت الذات والشخصية علامة على الفساد والوهم وغياب الحقيقة، فكان اختلاف عمر ورشيد (أبو راتب)، إشارة واضحة لتفاقم الوهم المضلل للوعي، لق كان عمر يخالف أخاه - الأمير في المجاعات المسلحة ويراه واهما في حقيقته، إلا أن رشيد العائد من القتال في أفغانستان بأفكاره وقناعاته الجديدة فيقول:" أصبحت مائعا يا عمر. الطاغوت يسكن أرواحكم أنتم المثقفون كالجن، صم بكم، عمي، لا ترجعون. لماذا تخضون ضرع الله؟ ... مسكونون بالشيطان الصليبي، مرعوبون من حكم الله لماذا؟"(عياشي، 2003، صفحة 214).

لقد تبين تطرف الفكر وتصدع الذات عند حميدة العياشي عندما اتجه رشيد إلى أفغانستان للجهاد، واشتد مرة أخرى لما عاد بأفكاره المسمومة، التي تسببت في مقتله، ومقتل أخيه على يد الجماعة المسلحة، التي اختارت الانتقام لمقتله على يد قوات الأمن، فلقد كان هذا التوجه علامة دالة على نهاية الحقيقة، وبداية الوهم، وهنا يمكننا القول أن حميدة عياشي استطاع أن يعبر لنا عن الجدور الحقيقة لهذا التصدع الحاصل في الفكر والوعي الاجتماعي والسياسي، كما قدم لنا صورة مسطحة للشخصية الجزائرية الجديدة التي بنت فكرها على دفع القوة بالقوة والعنف بالعنف، وهو التوجه الذي رأى فيه المفكر "طه عبد الرحمان" بداية لسيطرة الفساد والوهم والزيف حيث " يبطل القول بدفع العنف بعنف من جنسه، فلا يدفع العنف بعنف متله، سواء أكان من جنسه أم لم يكن، أو قل لا يدفع الخروج عن المشروعية بخروج متله، بل ينبغي دفع العنف بالقوة وليست أية قوة، وإنما القوة التي تكون من غير جنسه، أو قل لا يدفع الخروج عن المشروعية إلا بالتزامها"(عبد الرحمان، 2017، صفحة 124).

وفي مسيرة البحث عن الأنا تجسدت في رواية بخور السراب ممثلة في ذلك المحامي وهو بطل الرواية الذي نشأ في بيئة والده التي يملأها الرعب سببها خدمة الموتى، لتنتهي هذه الحياة بمغادرة البطل منزل والده إلى بيت جدته، فبدأ رحلته في البحث عن كيانه الداخلي واتخذ من المحاماة أداة للدفاع عن المظلومين وإعانة كل محتاج، في زمن أبح فيه كل شيء مباح من قتل، وخطف...، لتعرف على ميعاد التي كانت السبيل إلى الذات.

فانطلاقة الشخصية شهدت نوعا من الصعوبة في بدايتها، فالبطل رفض المحيط الاجتماعي بكل ما فيه، فحاول من خلال ذلك البحث عن الخلاص للذات والمجتمع، فشخصيته بدأت برفض الفكر الكلاسيكي الموروث من الأب والجد، إلى الرغبة في التغيير متأثرا بالثورة ونداءها الذي دعا إلى التغيير في كل المستويات اجتماعيا، سياسيا...وهنا كانت بداية بروز الهوية الجديدة.

ومثلت ميعاد بشخصها هي الأخرى رحلة البحث عن الذات، تلك المرأة التي كتب لها القدر أن تتزوج برجل عشقته بكل جوارحها، فراحت تبحث عنه بعد اختفاءه وذلك وقوعها في حب رجل آخر والممثل في المحامي الذي يسعى إلى البحث عن الذات والآخر، فكلاهما لها نفس الهدف والغاية يقول المحامي في الرواية:"

انتابني شعور مباغت بالدهشة وأنا انظر إليها، وجهها الملفوف بفلالة حزن سوداء، نظرتها المترددة و الحنونة، وتدفق صوتها القادم من أقصى الأحزان المتمركزة بعنف في ثنايا ذاكرتها بقيت أكثر من محتار، أكثر من مندهش، سكن وجهي أنا أيضا شيء من الحزن وكثير من الضباب"(مفتي، 2007، صفحة 95).

فميعاد مثلت لنا في السرد الروائي صورة مثالية بناء على ما تحمله من حب وحنان وأمل في هذه الحياة، فبعد وفاة زوجها عن طريق المحامي راحت تبحث عن نصف آخر تحتمي به، والمحامي هو الآخر كان ينظر إليها هي ذلك النصف الذي تكمله بالرغم من هاجس الخوف الذي سكن روحه بعدما أخبره الشرطي أن زوجها هو على قيد الحياة فقط التحق بصفوف الجماعات المسلحة يقول:":"مرات أشعر بالثقة بمجرد أنك بجانبي، وأن هذا دليل على أن الرحمة لم تغادر نفوس الجزائريين"(مفتي، 2007، صفحة 105)، أما ميعاد فترد:" ل ا أخفي عليك أن كل شيء كان سريعا في علاقتنا وظننت أني معك سأنسى زوجي الطاهر سمين"(مفتي، 2007، صفحة 118)، فميعاد على الرغم من أنها تعيش إحساسا تعاني من خلاله فراغ عاطفي وفقدان الذات إلا أنها تحاول البقاء لا الهروب عكس المحامي الذي سيطر عليه الخوف بعد اندلاع الثورة الداخلية، فكان الخوف عامل من العوامل التي أدت إلى فقدان الهوية.

الذاكرة إنها العتاب اللعين الذي يطارد الإنسان داخل فجوة الهوية في الواقع، وداخل بخور السراب في فضاء المتخيل، فالقلب والذاكرة هما الرابط الفعلي لخيوط الماضي اللعين، الذي يتسرب إلى دهاليز الشخصية ليجعلها تعيش على وقع شعور ما قد يكون ممتعا وقد يكون قاسيا، لكنه في الرواية وفي الشخصية الجزائرية اتسم بالمعاناة والضياع وفقدا الطريق الصحيح، المؤدي إلى المخرج الأمثل.

2-5-تصدع الحقيقة ونهاية الذات:

جاءت الرواية الجزائرية مفعمة بالصراعات والمواجهات والتحديات التي تفرضها الحياة، خاصة بعد نهاية الحقبة الاستعمارية وما أفرزته من مؤثرات سلبية متصلة بالفقر والتخلف والحاجة، فكانت الهجرة نحو أوروبا أهم معلم من معالة التصدع الانتمائي وبداية البحث عن الذات الجديدة، وقد عبر عن ذلك الروائي الجزائري عمارة لخوص في كتاباته السردية، ومن أبرزها رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك" ، التي مثلت نموذجا خالصا لرحلة البحث عن "صورة الهوية، وفضاء رحبا للمقاربة في إشكالية الأنا / الآخر، و التمثلات خطاب ما بعد الكولونيالية. فقدم من خلالها أسئلة الهوية الثقافية وتحولاتها القاتلة / الهالكة/ المهلكة، وصراعات الثقافات وحوار الحضارات" (بعلي، 2015، صفحة 466)، لقد استطاع الكاتب أن يكشف عمق الأزمة الانتمائية وعقدة الآخر من الشرق أو الجنوب، أو العالم الثالث، إنها العقدة التي تأبى النسيان والخروج، وقد مثل على ذلك بصورة الشخصية وهي تتلقى نبأ رفض السلطات طلب اللجوء الذي تقدمت به، " صدمت بكلمات مفتشة الشرطة: طلبك مرفوض وما عليك إلا الاستئناف. ذهبت مباشرة إلى أول بار صادفته، اشترت زجاجات من كيانتي لا أذكر عددها قصدت ساحة سانتا ماريا جورجي، وجلست فوق النافورة كعادتي، ورحت أشرب"(لخوص، 2003، صفحة 19)

كما كان للانا حضور في رواية وطن من زجاج جسد فيها الراوي كل تفاصيل الواقع المعاش أضف إلى ذلك وصفه وتعجبه من كل المتغيرات الحاصلة، يقدم رجل ويؤخر أخرى لا يعرف ما يفعله يتألم مما يعيشه أم يتألم على الواقع، يقول في ذلك:"لشد ما تمنيت وقتها لو أستطيع البكاء. تمنيت لو أستطيع أن أمد ذراعي إلى محدثي لأوقفه عن الكلام أو لأبكي قبالته... لأبكي أمامه بلا خجل من عيب البكاء... لكني عجزت عن الحركة..تساءلت بيني وبين نفسي فجأة: كيف يمكن تفسير هذه العبثية المطلقة... كيف يمكن تفسير هذا

البهاء؟"(صالح، 2006، صفحة 7). فحالة التيه مرتبطة بالشعور والبكاء تماما كما يرتبط البهاء بالقبح الذي يشوه منظره.

والبطل دائما غارق في متاهة يفتش عن ذاته في متن الرواية راجع ذلك إلى الصراع الذي يحصل بسبب المناصب على وجه أخض رئيس البلدية الذي يمارس نوعا من الوصاية الإقطاعية على الجميع بما فيهم الجد الذي سلبه كل أرضه، فصار البطل يحمل بداخله حقدا دفينا نحوه فيقول: "في الخامسة عشرة من العمر وجدتني أتفوق برغم كل شيء. لم أكن أتفوق انتقاما من وضع لم يكن يعنيني في النهاية. كنت أتفوق انتقاما من نفسي... ربما لأنني كنت أحلم بمغادرة القرية نحو العاصمة...فكرت أن المدينة تكفي لأتفوق في الدراسة لأجل ألا أكون واحدا من هؤلاء القطيع. لألا أكون مثل جدي أو رئيس البلدية أو الفلاحين أو البائسين الراضين عن أنفسهم...كنت أريد التفوق لأجلي أنا...أليس هذا ما وعدت به المعلم؟ ...لأجل جدي الذي كان ينظر بصمت مكسور... من أنا حقا؟ لست أدري ...ربما أيضا أنني أخطأت الكلية التي ألتحق بها. كنت مستغربا قبالة نفسي وأنا أكتشف أن الكليات التي أمامي لا تصلح وأنني غير منجذب لأي منها "(صالح، 2006، صفحة 47).

فالشعور بالمسؤولية هو من يحرك ذاتية الشخصية، لأن الوعود التي قطعها للمعلم وللجد كانت تحضره دوما، لتتحدى وحشية الواقع المؤلم، هذا الواقع الذي لم يعد يستوعب رغبة البطل لأنه رأى فيه ذلك العاجز عن تلبية الطموحات.

6-الخاتمة:

الكتابة الروائية الجزائرية تفاعلت مع الواقع بالشكل الذي جعلها أقرب إلى العملية الصحفية منها إلى الفنية لكنها استطاعت الجمع بين الحقيقة والوهم في إطار التعبير عن الخيال والتصوير والوقوف على بمبدأ الثابت والمتحول في الذات الانتمائية ولهذا فقد خلصنا إلى مجموعة من النتائج العامة نوردها كالآتي:

- استطاعت الكتابة الروائية الجزائرية، مواكبة الشخصية الجزائرية في تطورها ونموها عبر مراحل متعاقبة، حيث تفاعل الكتاب مع مختلف التفاصيل والحيثيات الاجتماعية والسياسية والفكرية، والدينية، المشكلة لها، مما مكنهم من فهم مستوى الفكر والصراع والمواجهة الحاصلة بين مختلف الفئات.

- قامت الشخصيات الروائية في مواجهتها على الحوارية الفكرية والصراع الوجودي، كما حاولت ربط الحقيقي بالوهمي، من خلال توليفة متعددة الأطراف والسبل والآليات، وظف خلالها الروائيون كل طاقاتهم التخيلية من أجل دمج المنفصل والبعيد، ومن أجل بسط تصور على مخيال القارئ عبر مستوياته الثقافية.

- تنوعت هذه التجربة وتشعبت في مسألة الهوية الفردية والجماعية، وتغلغلت في دواليب التاريخ لتحقق الربط بين التاريخي والمستقبلي، ولتفسر الحاضر كما يجب، لا كما هو كائن.

- عالجت الرواية الجزائرية موضع الموت من منظور معنوي قائم على تحطم الذات وانهيار القيم الاجتماعية، وسيطرة العنف والتطرف وكل أشكال الفساد والظلم، مما جعل الشخصية الجزائرية تعيش حالة من الخوف والترقب، والبحث عن مخرج وسط هذا الحقل المخالف للحقيقة، والذات.

- ارتكز موضوع الرواية الجزائرية في أغلب مراحله على تصوير وضعية المثقف بوصفه الفاعل الحقيقي في التغيير والمواكبة الحضارية، بالإضافة إلى مواكبته لحركة التغيير والبناء والتطور.

7-قائمة المراجع:

Ricoeur, P. (1985). *Tempset rècit 03*. paris: ÉDITIONS DU SEUIL.
Tajfel, H. (1984). *la categorisation sociale*. In Serge Moscovicci.
أحمد دوغان. (1996). *في الأدب الجزائري الحديث* (الإصدار 1). دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
الحبيب السايح. (2003). *تلك المحبة*. الجزائر.
الشريف حبيلة. (2010). *الرواية والعنف -راسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة*. عمان- الأردن، الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
الطاهر وطار. (بلا تاريخ). *الشمعة والدهاليز*. الجزائر: مطبعة الجاحظية.
بشير مفتي. (2007). *بخور السراب*. الجزائر، الجزائر: منشورات الاختلاف، الجزائر.
بيير زيما. (1991). *النقد الاجتماعي* (الإصدار 1). (عايدة لطفي، المحرر) دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع.
حبيب مونسي. (2002). *على الضفة الأخرى من الوهم*. الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع.
حفناوي بعلي. (2015). *تحولات الخطاب الروائي الجزائري* . الجزائر: دار اليازوري لعلمية للنشر والتوزيع.
حميدة عياشي. (2003). *متاهات ليل الفتنة*. الجزائر: منشورات دار البرزخ.
سعاد محمد خضر. (بلا تاريخ). *الأدب الجزائري المعاصر*. بيروت: المكتبة العصرية.
صباح شنيب. (2012). الرواية الجزائرية أسئلة البحث عن التشكل و الهوية. *مجلة الجزائر الجديدة*، 1-20.
طه عبد الرحمان. (2017). *سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية*. بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للفكر والابداع.
عبد الحميد بن هدوقة. (1983). *الجازية والدراويش*. الجزائر: المؤسسة الوطني للكتاب.
عبد الحميد بن هدوقة. (الجزائر1971). *ريح الجنوب*. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
علي حرب. (بلا تاريخ). *حديث النهايات/فتوحات العولمة ومأزق الهوية*.
عمارة لخوص. (2003). *كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك*. الجزائر: منشورات الاختلاف.
لونيس بن علي . (2014). *المحكي. الروائي العربي أسئلة الذات والمجتمع*. الجزائر، الجزائر: دار الالمعية للنشر والتزيع.
محمد العربي ولد خليفة. (2003). *المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
محمد مزيان. (2015). *مسألة الذات في الفلسفة الحديثة* (الإصدار 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
مولود فرعون. (1984). *الدروب الوعرة*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
ياسمينة صالح. (2006). *وطن من زجاج*. الدار العربية للعلوم ناشرون.